وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة تكريت

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم علوم القران الكريم والتربية الإسلامية

الدراسات العليا

مرحلة الماجستير

المحاضرة الخامسة

عربية القران

ا.د. احمد مناف حسن

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الخامسة

عربية القرآن الكريم

الحمد لله الذي أنزل القرآن بلسان عربي مبين، قال الله سبحانه تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، وجعله قرآنًا عربيًّا غير ذي عوج، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨]،

اختار الله سبحانه وتعالى بحكمته وعلمه اللغة العربية لغة وبيانا لكتابه الخالد ، لأن هذه اللغة فيها من مزايا التعبير والبيان ما لم تحظ به لغة غيرها ، ولن يسع كتاب الله غيرها ، ولو كان في الوجود لغة تفضل اللغة العربية في الكشف عن دقائق البيان وأسرار التعبير ، ما جاوزها القرآن إلى غيرها ، ولكن نزوله باللغة العربية دليل قاطع على نفي هذا الاحتمال . فاللغة العربية أسمى اللغات على الإطلاق ، والدليل أن عالم الغيب والشهادة ارتضاها أداة لوحيه المنزل على أكرم رسله محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - .

وعربية اللغة والبيان القرآني جاء النص عليها في مواضع متعددة من القرآن ، منها قوله تعالى : { الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } (٢) { إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } (٣) ، وقوله : { حم } (٤) { وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ } (٥) { إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } (٦) ، وفي قوله : { وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ } (٧) { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } (٨) { عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ } (٩) { بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ } (١٠) ، وقوله : { كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ } (١١) مجلة البحوث الإسلامية - (٤٠ / ٢٨٢)

وقوله : { قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } (١) ، وقوله : { وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ } (٢) ، وقوله تعالى : { وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا } (٣) ، وقوله : { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ } (٤) ، وقوله : { وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ } (٥) .

أن لكل لغة سمات خاصة في بنائها التعبيري الذي تتميز به عن غيرها من اللغات ، شاء ذلك أهلها أو لم يشاؤوا ، فهم ينطلقون في البناء التعبيري خاضعين لمؤثرات البيئة بشتى ألوانها ، من بيئة طبيعية إلى اجتماعية واقتصادية وسياسية وغير ذلك .

وكون القرآن إنما أُنزل بلسان عربي مبين، يعني أنه يُفهم من خلال معهود العرب في الخطاب وإبانتهم، وتُحدَّد معانيه من خلال دلالات الألفاظ التي تعاهد عليها العربُ في استعمالاتهم، أو من خلال مفهوم العرب لدلالات الألفاظ،

قال الإمام الشافعي: (فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افتُرض عليه من التكبير، وأُمر به من التسبيح والتشهد، وغير ذلك).

وقد وضَّح – الامام الشافعي رحمة الله عليه - في رسالة الأصول كون القرآن عربيًّا، وبنى عليه أمران:

أحدهما: أنه يجب على كل مسلم أن يتعرف قدرًا من اللغة العربية يصحح به دينه، فيستحفظ من القرآن الكريم قدرًا يستطيع قراءته وفَهمه، فلا قراءة من غير فهم.

ثانيهما: أنه لا يجوز أن يتصدى لتعرُّف معانيه من لا يعرف اللسان العربي بدقائقه وأساليبه، فلا بد أن يعرف ألفاظ العموم ومدى دلالتها، والألفاظ الخاصة ومواضعها بجوار الألفاظ العامة، والألفاظ المجملة والمشتركة والمفصلة، وهكذا حتى يتعرف كيف يستخرج الأحكام الفقهية من الكتاب الكريم.

قال الإمام الشافعي: (لأنه لا يَعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحدٌ جهِل سَعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفرُّقها، ومن عَلِمه انتفت عنه الشبهة التي دخلت على من جهل لسانها).

وقد "اتفق علماء الأصول على ضرورة أن يكون المجتهد عالما باللغة العربية؛ لأن القرآن الذي نزل بهذه الشريعة عربي، ولأن السنة التي هي بيانه جاءت بلسان عربي"

وقد يقول قائل: إن القرآن الكريم يشتمل على كلمات غير عربية، وهذا ينافي كونه قرآنًا عربيًّا؛ كما قال الله تعالى في: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

ومعروف أن اللغات تتلاقح في بعض الألفاظ؛ أي: يأخذ بعضها من بعض، بحكم الاتصالات بين الأفراد والجماعات والشعوب التي هي ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية للبشر، يوجد فيها من ألفاظ متحدة قد يكون لانتساب لغتين إلى أصل واحد، وقد يكون نقلًا من لغة إلى لغة، أو نوعًا من أنواع التغير الدلالي، ولابن فارس كلام نفيس في هذا السياق، يقول رحمه الله: (كانت العرب في جاهليتها على إرث مِن إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائهم وقرابينهم، فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام، حالت أحوال ونُسخت ديانات، وأُبطلت أمور، ونُقلت من اللغة ألفاظٌ عن مواضع إلى مواضع أُخَر بزيادات زيدت، وشرائع شُرعت، وشرائط شُرطت، فعفى الأول الآخر)

فإذا كان في القرآن الكريم ألفاظ أصلها غير عربي؛ مثل: (مشكاة، استبرق، أرائك...)، فقد استعملها العرب وصارت مألوفة عندهم، وأجْروا عليها قواعد لغتهم في الإعراب والاشتقاق

والإفراد والتثنية والجمع وغيرها؛ قال الإمام الشافعي: (فالحجة في كتاب الله؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم: ٤].

"وقد أخرج ابن جرير الطبري بسند صحيح عن أبي ميسرة التابعي الجليل، قال: ((في القرآن من كل لسان))، وهذه إشارة إلى أن حكمة وقوع هذه الألفاظ في القرآن أنه حوى علوم الأولين والآخرين، ونبأ كل شيء، فلا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسنة؛ لتتم إحاطته بكل شيء، فاختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأكثرها استعمالا للعرب".

يقول الإمام الزركشي في البرهان: (اعلم أن القرآن أنزله الله بلغة العرب، فلا يجوز قراءته وتلاوته إلا بها؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف: ٢]، وقوله: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا ﴾ [فصلت: ٤٤]، وهذا يدل على أنه ليس فيه غير العربي؛ لأن الله تعالى جعله معجزة شاهدة لنبيه عليه الصلاة والسلام، ودلالة قاطعة لصدقه، وليتحدى العرب العرباء به، ويحاضر البلغاء الفصحاء والشعراء بآياته، فلو اشتمل على غير لغة العرب لم تكن له فائدة، هذا مذهب الشافعي، وهو قول جمهور العلماء).

"فلو لم ينزل على ما عهدوا، لما تحققت معجزته فيما يقصد إليه من الإعجاز، ولو لم ينزل على طريقتهم، لكان بعيدًا عن مقاصده الكبرى المتمثلة في البيان والهداية"

ومما تقدم يتضح لنا أن نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة باللغة العربية، وفهم الأحكام الشرعية منها إنما يكون فهمًا سليمًا إذا رُوعي فيه مقتضى الأساليب العربية وطريق الدلالة فيها، وما تدل عليه ألفاظها حالة الإفراد وحالة التركيب؛ كما قال الإمام الشافعي: (فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها، على ما تعرف من معانيها، وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها، وأن فطرته أن يخاطب بالشيء منه عامًّا ظاهرًا يُراد به العام الظاهر، ويُستغنى بأول هذا منه عن آخره، وعامًّا ظاهرًا يراد به العام ويدخله الخاص، فيستدل على هذا ببعض ما خوطب به فيه، وعامًّا ظاهرًا يراد به الخاص، وظاهرا يُعرف في سياقه أنه يُراد به غير ظاهره، فكل هذا موجودٌ علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره).

"فالقرآن الكريم وهو يتنزل، كان يعطي ألفاظه التي هي عماد الدين معانيَ محكمة في العقيدة أو الشريعة، إجمالًا أو تفصيلًا، ولو تتبع الباحث بالاستقراء الكامل مواطن ورود اللفظ الواحد، لأمكنه الوقوف على معان هذا اللفظ الجمة وعلى حقيقته، والمراد منه في هذا الموطن أو ذاك، سواء اتحدت المعاني أو اختلفت، ولكان ذلك خير معين لفهم المراد من كلام الله تعالى في كتابه".

وإننا إذ نعود بالمناهج الأصولية إلى بداياتها الأولى التي شقت طريقها مع بذرة التوحيد، وغرسها رسول الله صلى الله عليه وسلم في عهده، وواكبت حركة التشريع الإسلامي على نحو خاص في العهد المكي، وعلى نحو عام وأكثر شمولية في عهده المدني؛ فإن هذه العودة كفيلة

بتسليط الضوء على المناهج الأصولية المتبعة في العملية الاجتهادية، منذ أن كانت مجرد قانون فكري، اتخذ طابع السليقة العربية المطعمة بإرشادات الوحي الإلهي المطلق، قبل أن تصبح علمًا قائمًا برأسه، وتظهر الأسباب الداعية إلى تدوينه والتصنيف فيه.

ومن يحاول رصد تطور المضمون الدلالي اللغوي للمفردات العربية وما تفيده من معان، مع ما أضافت عليها الشريعة الإسلامية، يلحظ أنها على صعيد الأحكام التكليفية مثلًا، قد اكتسبت بعدًا أخرويًّا؛ حيث ترتَّب على مفهوم الإلزام الثواب والعقاب، وبالتالي استطاعت الشريعة أن ترقى باللغة من مجرد وسيلة تخاطب بين الخلق، حتى أضحت اللسان الناطق باسم الشرع، الأمر الذي يلمح إلى كون العربية صنعة علمية، وملكة لسانية واسعة، قادرة أن ترقى بحاجات الناس أبدًا، وإنما يتكون القصور من الناطقين بها.

"إن نزول القرآن الكريم آخر الرسالات السماوية على آخر الرسل عليهم السلام، باللسان العربي المبين، لهو تشريف أيما تشريف لهذا اللسان وأهله، ذلك أنه أضفى على هذه اللغة أبعادًا، وفتح أمامها آفاقًا جديدة في مبناها ومعناها، وكساها حللًا من الجمال والجلال، جعلتها على مر العصور والدهور لغة علوم وفنون وآداب وحضارة، ترتقي برُقيها وتَضعف بضَعفها، لكنها بوصفها لغةَ وحي، محفوظة بحفظ الله تعالى لهذا الوحي وخالدة بخلوده".

ويكفي في التدليل التاريخي على ذلك الحفظ، أن القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي بقي محافظًا على لغته الأصل التي نزل بها، بها يتلى الآن كما تُلي منذ نزل، وبها يتعبد الناس ربهم كما تعبده الصدر الأول، على خلاف الكتب السماوية الأخرى التي لم تستمر إلا ترجماتها العديدة على اختلاف في اللفظ والمعنى.

ذهب المفسر ابن عطية إلى القول بأن القرآن بعض ألفاظه أعجمية، ووافقه بعض الفقهاء، يقول الامام السيوطي: (اختلف الأئمة في وقوع المعرب في القرآن، فالأكثرون، ومنهم الامام الشافعي وابن جرير وأبو عبيدة والقاضي أبو بكر وابن فارس على عدم وقوعه فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ [يوسف: ٢]، وقوله: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقد شدَّد الشافعي النكير على القائل بذلك.

وقال أبو عبيدة: (إنما أُنزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن زعم أن فيه غير العربية، فقد أعظم القول، ومن زعم أن كذا بالنبطية، فقد أكبر القول).

وقال ابن فارس: (لو كان فيه من لغة غير العرب شيء، لتوهم متوهِّم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله؛ لأنه أتى بلغات لا يعرفونها).

وقال غيره: (بل كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم بعض مخالطةٍ لسائر الألسنة في أسفار لهم، فعلقت من لغاتهم ألفاظًا غيرت بعضها بالنقص من حروفها، واستعملتها في

أشعارها ومحاوراتها، حتى جرت مجرى العربي الفصيح، ووقع بها البيان، وعلى هذا الحدِّ نزل بها القرآن).

وقال آخرون: كل هذه الألفاظ عربية صرفة، ولكن لغة العرب متسعةٌ جدًّا، ولا يبعد أن تخفى على الأكابر الجِلة، وقد خفي على ابن عباس معنى ﴿ فَاطِرِ ﴾ [الأنعام: ١٤].

قال الشافعي: ((لا يحيط باللغة إلا نبي)).

وقال أبو المعالي عزيزي بن عبدالملك: (إنما وجدت هذه الألفاظ في لغة العرب؛ لأنها أوسع اللغات وأكثرها ألفاظًا، ويجوز أن يكونوا سبقوا إلى هذه الألفاظ).

وذهب آخرون إلى وقوعه فيه، وأجابوا عن قوله: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ بأن الكلمات اليسيرة بغير العربية لا تخرجه عن كونه عربيًّا؛ [السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص: ٩٣٤ ـ ٩٣٥]،

والمعروف أن اللغة لها خصائصها الفريدة وسماتها المميزة عن غيرها من اللغات ، والتعبير العربي يحمل في طياته من الدقة والبراعة بحيث يختلف المعنى إذا قدمت أو أخرت كلمة عن أخرى ، كما أنها تختلف عن غيرها من اللغات في تكوين الجملة نفسها كتقديم الفعل على الفاعل ، والموصوف على الصفة ، وغير ذلك مما يعرفه كل ملم باللغة العربية وغيرها من اللغات الأجنبية .

وترجمة القرآن إلى لغة أخرى تذهب بإعجازه ويصبح شأنه شأن أي كتاب عادي مهما حوى من أحكام وفضائل وشرائع ، فهو في النهاية يمكن مجاراته .

وقد تحدى الرسول - صلى الله عليه وسلم - العرب قاطبة - وهم أهل البلاغة والبيان - أن يأتوا بسورة من مثله ، وليس من الضروري أن يأتوا بمعاني القرآن نفسها وإنما في مثل القرآن ، لأن التحدي لم يكن فيما يحويه القرآن من أحكام وشرائع ، ولكن لما يحويه من نظم بديع وتركيب بليغ ، فإن أتوا بمثل نظمه من غير أن يكون صدقا فقد أفلحوا وأظهروا حجتهم .

فكانت سلامة النص من العوج في الدلالة والالتواء في المعنى من خصائص حفظ البيان، ومن لوازم حفظ نص القرآن الكريم.